القومية العربية وإسرائيل

بقلم

أنور الجمل

كان من نتيجة الاتفاقات الدولية التى عقدت بعد الحرب العالمية الأولى ، أن انفردت إنجلترا وفرنسا بمناطق النفوذ فى العالم وفى الشرق الأوسط بالذات ، وتمثل هذا الانفراد فى الانتداب الذى فرض على القطاع العربى . ولم يكن نظام الانتداب فى الواقع إلا نوعاً من أنواع الاستعمار المقنع وصورة جديدة من صور الاستغلال تفتقت عنه أذهان المستعمرين .

وحرص ساسة الاستعمار على أن يوفقوا بين ما نادوا به طوال الحرب من حرص على حرية الشعوب وحقهم فى تقرير مصيرهم وبين ما يهدفون إليه من صيانة لمصالحهم واستغلال لأرزاق الأمم الصغيرة وهو فى الحقيقة يحفظ للدول المنتدبة — وهى نفسها الدول الاستعمارية الكبرى — نفوذها وسيطرتها ووضع يدها على أرزاق أهل المنطقة ، ومقدراتهم . وذهبت صيحاتهم طوال فترة الحرب عن الديموقراطية والحرية وصيانة السلام أدراج الرياح .

لذلك لم يكن غريباً أن استنكرت الشعوب العربية نظام الانتداب واعتبرته اعتداء على استقلالها وسيادتها . خاصة وأن الوعى القومى كان قد نما نمواً كبيراً فى مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وغدت شعوبه تعارض بل لا تطيق أى نوع من أنواع الاستعمار سواء جاء هذا الاستعمار سافراً أو مقنعاً أو انتدابا .

واحتدم النزاع — بفضل هذا الوعى المطرد — بين شعوب المنطقة وبين قوى الاستعمار من أجل حريتهم وسيادتهم ، بحيث يمكن القول أن الفترة التى انقضت بين الحرب العالمية الأولى والثانية كانت فترة نضال مرير بين هاتين القوتين . ويستطيع الباحث أن يقسم هذه الفترة قسمين ، فقد اتسم كل قسم منهما بسمات معينة .

أما الأول ، فقد استقر فيه النفوذ الأجنبى بسبب استقرار السياسة الدولية ، اللهم إلا بعض التوتر الذى كان ينبعث بين الفينة والأخرى بسبب تأجج الشعور القومى أحياناً وما كان يحدثه من قلق للدول الاستعمارية .

وأما الثانى : فقد ساد فيه الاستقرار بعض الشىء فى السنوات الأولى منه على أثر اهتمام دول الاستعمار بتسوية مشاكلها مع الدول المغلوبة على أمرها تحت يقظة شعوبها وإصرارها على استرداد حريتها ولكنه غص بمشاكل فى السنوات الأخيرة بسبب التوتر الدولى الأخير .

وقد تمثل هذا الاستقرار الذى تحدثنا عنه فى النصف الأول من هذه الفترة بتسوية بعض المشاكل بإبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر

ومعاهدة سنة ١٩٣٠ مع العراق ومعاهدة سنة ١٩٢٨ مع شرق الأردن . وبقيت مشكلة فلسطين معلقة بدون حل .

على أن تاريخ فلسطين الحديث قد ارتبط ارتباطاً خطيراً بوعد بلفور بالوطن القومى لليهود . هذا الوعد الذى لم ترد به دول الاستعمار إلا سيطرة كاملة على فلسطين وتخلصاً من نظام الانتداب فيها ، إذ رأت فيه بريطانيا حائلا دون سيطرتها على الخط الأمامى لتأمين قناة السويس من أى خطر يقع عليها من الشمال .

وقد كان كتشنر أول من أشار على دولته بأهمية فلسطين وخطورة موقعها وذلك سنة ١٩١٤ الأمر الذى حدا به إلى أن يقترح على حكومته ضم فلسطين إلى منطقة النفوذ البريطانى ، بحيث حرصت بريطانيا فى اتفاق (سكس — بيكو) السرى على الأخذ بنصيحة رجل الإمبراطورية العجوز وضمت فلسطين إلى منطقة نفوذها .

على ضوء هذه الأهمية لفلسطين بالنسبة للإمبراطورية البريطانية المنهارة — كما أدركها كتشنر — تتضح الأسباب التى حدت بالاستعمار إلى خلق إسرائيل فى موضع القلب من أمتنا العربية .

وعند ما أيقن الاستعمار « بعد الحرب الأخيرة » أن حركة التحرير فى ازدياد مطرد وأن انتصارات الشعوب بثوراتها العارمة تكاد تجرفه فى طريقها ، وأن غضبات الشعوب تكاد تلاحقه فى كل مكان . وعندما أحس أن أساليب الاستعمار البالية العفنة بما فيها من قهر وقمع وتنكيل ، وعسكرة فى المدن ، واحتلال للمرافق ، وتدخل فى شئون الحكم لتنصيب

أعوانه وأذنابه حكاماً على الناس قد ولّى زمانه وانقضى .

عند ذلك أيقن أن الأمر قد خرج من يده وأنه أصبح مكرهاً على الرحيل من الوطن العربي كله . فبدأ يفكر في الاحتفاظ باستغلاله واحتلاله فوضع خطة جديدة تهدف إلى الإبقاء على استعماره ، هذه الخطة الجديدة تقوم على نقطتين أساسيتين :

أولهما : خلق إسرائيل لاتخاذها أداة للضغط على الدول العربية لتنفيذ الأغراض الاستعمارية في المنطقة ، ولعرقلة تقدم شعوب المنطقة نحو التحرر الوطني ، ومن ثم القضاء على القومية العربية الوليدة .

والثانية : ربط الدول العربية بحلف أو ميثاق دفاعي مشترك ليستطيع الاستعمار السيطرة عليها مجتمعة في شتى نواحي حياتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

ولعل من سخرية القدر أن يكون هذان العاملان اللذان تفتقت عنهما قريحة دول الاستعمار للاحتفاظ بالمنطقة في دائرة نفوذها هما نفس العاملين اللذين أطاحا بما بقي لها من سيطرة واستغلال على مقدرات هذه البلاد .

فقد كان هذان العاملان من أهم الأسباب التي ساعدت على اشتعال القومية العربية ، وعلى تغذية الروح الوطنية في شعوب المنطقة . فتأييد بريطانيا لليهود خلق عداء مريراً لها في قلوب شعوب المنطقة بدأت تجني عواقبه هذه الأيام . إذ ليس من شك في أن خيانة بريطانيا للعرب وتنكرها لحقوقهم ، وغدرها بهم ، ومحاربتها الدائبة لأمانيهم الوطنية ، ومقاومتها

لقوميتهم النامية ، قد قضى قضاء تاماً على علاقاتها معهم ، وعجل بالقضاء على نفوذها ومصالحها فى المنطقة العربية كلها ، وباتت هذه المصالح ، وهذا النفوذ يحتضر حتى جاءت حملة القرصنة الأخيرة على مصر التى تزعمها إيدن فأطاحت بكل ما بقى لها من نفوذ وسلطان .

فرغم العقبات التى قامت فى الماضى للحيلولة دون انبعاث القومية العربية بسبب بقايا الانقطاع الذى كان قائماً ، وانعدام الزعامة التى تحمل روح الشعور بالمصلحة العامة ، وقلة الشعور بالمسئولية الجماعية بسبب عوامل القهر والقمع التى تتخذ ضد الرأى العام فى كل مناسبة . نقول برغم كل هذه الحواجز والعقبات فقد كان خلق إسرائيل وتحالف الاستعمار معها ضد الشعوب العربية أكبر حافز لهذه القومية على الظهور والانطلاق .

لم يكن إذاً (وعد بلفور) ثمناً للجهود المبالغ فيها التى بذلها اليهود فى الولايات المتحدة لتدخل الحرب إلى جانب الحلفاء . فإن هذه الجهود لم تجذب إليها انتباه المؤرخين الذين تناولوا أسباب هذا التدخل .

كما أن المصالح الحقيقية للولايات المتحدة لم تكن خاضعة للصهيونية العالمية فى ذلك الوقت بدليل ما كان من معارضة كثير من اليهود فى إنجلترا وأمريكا لفكرة الوطن القومى اليهودى قبل إعلان وعد بلفور خشية أن يفقدهم ما لهم من امتيازات وحقوق ومصالح فى البلاد التى يقيمون فيها .

كما لم يكن وعد بلفور أيضاً ثمناً لمساهمة اليهود فى الحرب بأموالهم

كما توارد فى بعض المصادر التاريخية لسبب بسيط هو أن أكبر عدد منهم كانوا من اليهود المعارضين لفكرة الوطن القومى .

وإنما الذى حمل إنجلترا على إصدار وعد بلفور هو ما رسمته لنفسها من الانفراد بالسيطرة على فلسطين بإنشاء قاعدة استعمارية فيها لتحكم المنطقة العربية كلها من وراء هذه الدولة المصطنعة كما تضمن بريطانيا بقيام إسرائيل استمرار نفوذها فى البلاد العربية بعد أن أحست بنمو الوعى القومى كما أسلفنا .

ثم إن فى قيام الوطن القومى لليهود فى فلسطين ما يشغل العرب عن قضاياهم الوطنية أو التفرغ لمشاكلهم الداخلية أو الخارجية .

لذلك يمكن القول أن هذه العوامل المفتعلة التى قيلت فى إنشاء وطنهم القومى والتى عمل الصهيونيون على نشرها والترويج لها بين الناس لم تكن إلا من قبيل الدعاية لأنفسهم وتغطية موقف الدول الاستعمارية منهم والتحيز لهم بهذا الشكل المفضوح .

وتوالت قصة خلق إسرائيل بعد صدور وعد بلفور بتخلى بريطانيا عن انتدابها فجأة ودون سابق إنذار بعد أن اتفقت مع إسرائيل على احتلال مدن فلسطين ومساعدتها وتيسير سبل هذا الاحتلال برغم الاشتباكات الوهمية التى حدثت قبل ذلك بين القوات البريطانية المحتلة وبين العصابات الصهيونية . ثم توالت فصول هذه التمثيلية من مساعدة العصابات الصهيونية بمدها بالسلاح دون العرب ، وبذل الوعود الكاذبة للعرب لتضليلهم والزج بهم فى حرب يعلمون مقدماً نتيجتها . والتدخل

لوقف الحرب بعد أن طرقت الجيوش العربية أبواب تل أبيب . ثم ما كان من أمر إيقاف الحرب مرة ثانية لمد إسرائيل بالسلاح . وقامت إسرائيل . ثم أعقب ذلك ألوان مختلفة من الضغط السياسى والاقتصادى والذى تمثل فى صور شتى . فلا سلاح للعرب حتى لا ترجح كفتهم على كفة إسرائيل إلا إذا أرادوه مشروطاً بشروط أقل ما يقال فيها أنها احتكار واستغلال واستعمار ، ولا مساعدات اقتصادية للبلاد العربية ، بل حصار اقتصادى رهيب إلا إذا هادنوا الدولة الطاغية وعقدوا صلحاً معها .

كل هذا يتخذ ضد العرب ، وإسرائيل سادرة فى عدوانها تحت سمع دول الاستعمار وبصرها والشكاوى تتلاحق كل وقت ضد إسرائيل ولا تجد لها سميعاً ولا مجيباً .

ثم إن الأسلحة تنهال على إسرائيل دون قيد أو شرط وتجمع الأموال لها فى كل مناسبة وبغير حساب .

إلا أن الشعوب العربية لم تستسلم ومضت فى بناء دفاعها العربى الخالص .

فعقدت الاتفاقات العربية الثنائية ، ووحدت القيادات العسكرية ضد عدوان إسرائيل وعقدت صفقات الأسلحة ، وفرقت الحصار الاقتصادى المضروب ، وأعادت النظر فى جميع الاتفاقيات الاستعمارية السابقة ، كاتفاقيات مرور البترول فى سوريا ولبنان والاتفاقات التجارية بصفة عامة .

وواصلت هذه السياسة زحفها فطرد جلوب وتحرر شعب الأردن

من الالتزامات التى كبلته بها بريطانيا .

وأحس العرب ألا سبيل أمامهم إلا أن يتكتلوا ويوحدوا جهدهم ليدرأوا هذا الخطر الاستعمارى الذى يتربص بهم . ذلك الخطر الذى وضح تماماً فى الحرب الفلسطينية الأخيرة وما أعقبها من مناورات استعمارية .

وغدا درعنا الواقى الوحيد أمام هذا الخطر هو اتحادنا وأدركنا أنه من السهل الاعتداء على بلد عربى منعزل لا يربطه بالآخرين أى رباط لأن العدوان على هذا البلد لن تتجاوب أصداؤه فى المنطقة التى يعيش فيها . أما إذا كانت بلاد المنطقة ترتبط ارتباطاً قوياً فإن العدوان على أى منها لا بد وأن يؤثر على البلاد الأخرى .

وقد رأينا فى العدوان الثلاثى الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى كيف أن صداه قد تردد من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى واعتبر كل بلد عربى أن الاعتداء موجه إليه شخصياً . ذلك لأن العرب قد أدركوا أن مصر لم تكن هى المقصودة بالذات وإنما المقصود هو القضاء على القومية العربية النامية. لأن هذه القومية أصبحت خطراً يتهدد المصالح الاستعمارية فى المنطقة . وينذر بالقضاء التام على كل أثر من آثار النفوذ الأجنبى فى جميع البلاد العربية .

وأحس المستعمرون أن مقومات هذه القومية قد اكتملت فأصبح لها أدب خاص ولها منهج واضح تمام الوضوح ووضح أنها تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف الخليج الفارسى إلى شاطئ المحيط

الأطلسى . الأمر الذى أطار صواب دول الاستعمار فأخذوا يضعون الخطط ويحيكون المؤامرات للقضاء على هذه الانتفاضة التى تتهددهم فكان الاعتداء الأخير على مصر وما صاحبه من مؤامرات فى سوريا .

وفى هذه المرة لم يستطع الاستعمار أن يخفى نواياه أو يتذرع بالمداورة أو أن يلجأ إلى المحاورة بل إنه تحالف مع إسرائيل عدوة العرب صراحة وأعلن إيدن بكل وضوح فى مجلس العموم البريطانى أن الاعتداء على مصر ليس هدفه قناة السويس فحسب بل إن هدفه الأكبر هو القضاء على القومية العربية التى يقودها الرئيس جمال عبد الناصر ويعمل على التمكين لها .

وكان صراعاً رهيباً بين القومية العربية وبين قوى الاستعمار امتحنت فيه القومية العربية امتحاناً مريراً ، وخرجت من هذا الامتحان مرفوعة الرأس وأثبتت للعالم أجمع أنها أصبحت حقيقة واقعة بفضل تضامن البلاد العربية كلها ووقوفها صفاً واحداً بجانب مصر .

وغدت القومية العربية قوة دولية جديدة لها وزنها بين الكتل المتصارعة حتى أن الإنجليز أنفسهم عند ما روعتهم نتائج مغامرة إيدن الحمقاء لم يستطيعوا إخفاء اعترافهم بأثر الوحدة العربية فى القضاء على مصالحهم . وما بقى لهم من نفوذ فى الشرق الأوسط كله . وسجلوا على إيدن حماقته إذ عرضهم للارتطام بتلك القوة الكبرى النامية التى أثبتت الأحداث أنها أمنع من أن ينال منها غاصب أو معتد مهما تكن قوته .

أما إسرائيل التى كانت تدعى أنها لا تطمع إلا فى أن تعيش وصوّر

لها خيالها السقيم يوماً أنها تسخر قوى الاستعمار لصالحها . فقد أثبتت المؤامرة الأخيرة المكشوفة أن الصهيونية والاستعمار حليفان لا يفترقان تجمع بينهما أساليب الغدر والخيانة . وأن إسرائيل قد أشهدت العالم أجمع على أنها هى أداة الاستعمار فى المنطقة بما لا يدع مجالا للشك .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

obeikandl.com